حشيشة الفقراء(*)

د. أسامة عانوتي

يَحْيَا من الأفيونِ في عالم ... لا لُؤْمَ فيه ولا حُسَّدُ
من ظلمة الأرض ومن ظلمها ... الى ذرى الخلد به يصعدُ
عِطْرٌ من الفردوس مَنْ شَمَّهُ ... كواكبُ الأفقِ له تَسْجُدُ

هكذا كان ظَنُّ بعض الشعراء[1] بالأفيون[2]، أولَ العهد به، أمّا «عطر الفردوس» بالذات، فتعبير[3] أطلقه الدراويش[4] على هذه النبتة قبل أن تحرم لثبات مضرتها وأذاها. ومما يؤيد ما نورده من تعاطيه عهد ذاك ـ وطائفة مما نطلق عليه، اليوم، المخدرات ـ ما ألّف في تحريمها؛ مثل رسالة إبراهيم بن بخشي، الشهير بـ دده خليفة (المتوفّى سنة 973هـ/ 1565 م): «في البَنْج[5] والحشيش وتحريمهما»[6] فقد عرفت هذه المادة، المسماة «الشهدانج» وهي القِنَّب[7]، في مصر، في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر ـ الثاني عشر للميلاد)، وشاع استعمالها. وقد عُهِدت في فارس والهند، قبل ذلك بأمد طويل، واستخدِمت مسكراً ومخدراً. كما تفننت هذه الأقطار في مركباتها المختلفة[8].

أما القنب أو الحشيش[9]، فقد عرف، بدءاً، «بحشيشة الفقراء»[10].

أورد المقريزي[11] في «خططه»: «قال الحسن بن محمد (العُكْبَري المتوفّى حوالَيْ سنة 690 هـ/ 1291 م) في كتاب السوانح[12] الأدبية في مدائح القنبية: سألت الشيخ جعفر[13] بن محمد الشيرازي الحيدري، ببلدة «تُسْتَر»[14] في سنة ثمان وخمسين وستمائة عن السبب في الوقوف على هذا العَقار ووصوله إلى الفقراء[15] خاصة، وتعديه إلى العوام عامة؛ فذكرلي أن شيخه، شيخَ الشيوخ[16] حيدراً ـ رحمه الله ـ، كان كثير الرياضة والمجاهدة، قليل الاستعمال للغذاء، قد فاق في الزهادة، وبرز في العبادة، وكان مولده بنشاور[17] ـ من بلاد خراسان ـ، ومقامه بجبل بين نشاور ومارماه[18]. وكان قد اتخذ بهذا الجبل

(*) أتوجه بالشكر الصادق الى الدكتور فارطان سفريان، أستاذ علم العقاقير (pharmacology)، الحجة، الثبْت في كلية الطب الفرنسية في بيروت، الذي وَسِعَ فضلُه وجلْمُه فرطَ مكابدتي إياه؛ ومثله أزجي إلى العالم النبيل الدكتور شارل أبو شعر الأستاذ في دائرة علم الحياة (Biology) في الجامعة الأميركية في بيروت الذي أتفيّا دوماً ظلّ علمه وإسماحه.

زاويةً، وفي صحبته جماعة من الفقراء، وانقطع في موضع منها، ومكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منها، ولا يدخل عليه أحد غيري للقيام بخدمته. قال: ثم إن الشيخ طلع ذات يوم، وقد اشتد الحر وقت القائلة، منفرداً بنفسه؛ إلى الصحراء. ثم عاد، وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل؛ وأذن لأصحابه في الدخول عليه؛ وأخذ يحادثهم. فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة، بعد إقامته تلك المدة الطويلة في الخلوة والعزلة، سألناه عن ذلك فقال بينما أنا في خلوتي إذْ خطر ببالي الخروج الى الصحراء منفرداً فخرجت فوجدت كل شيء من النبات ساكناً لا يتحرك، لعدم الريح وشدة القيظ، ومررت بنبات له ورق فرأيته في تلك الحال ليس بلطف، ويتحرك من غير عنف، كالثمل النشوان. فجعلت أقطف منه أوراقاً وآكلها، فحدث عندي من الارتياح ما شاهدتموه؛ وقوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله. قال: فخرجنا إلى الصحراء فأوقفنا على النبات، فلما رأيناه قلنا: هذا نبات يعرف بالقنب. فأمرنا أن نأخذ من ورقه ونأكله، ففعلنا. ثم عدنا إلى الزاوية، فوجدنا في قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه. فلما رآنا الشيخ على الحالة التي وصفنا أمرنا بضيافة هذا العقار، وأخذ علينا الأَيْمَان أن لا نعلم به أحداً من عوامّ الناس، وأوصانا أن لا نخفيه عن الفقراء، وقال: إن الله تعالى قد خصكم بسرّ هذا الورق ليذهب بأكله همومَكم الكثيفة ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة، فراقبوه فيما أَوْدَعَكم وراعوه فيما استرعاكم. قال الشيخ جعفر: فزرعتها بزاوية الشيخ حيدر[19]، بعد أن وقفنا على هذا السر في حياته، وأمرنا بزرعها حول ضريحه بعد وفاته. وعاش الشيخ حيدر، بعد ذلك، عشر سنين، وأنا في خدمته، لم أره يقطع أكلها في كل يوم. وكان يأمرنا بتقليل الغذاء وأكل هذه الحشيشة. وتوفي الشيخ حيدر سنة ثمان عشرة بزاويته في الجبل، وعمل على ضريحه قبة عظيمة. وأتته النذور الوافرة من أهل خراسان، وعظموا قدره، وزاروا قبره، واحترموا أصحابه. وكان قد أوصى أصحابه، عند وفاته، أن يوقفوا ظرفاءَ أهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره، فاستعملوه. قال: ولم تزل الحشيشة شائعةً، ذائعة في بلاد خراسان ومعاملات فارس؛ ولم يكن يعرف أكلَها أهلُ العراق، حتى ورد اليها صاحب هرمز[20] ومحمد ابن محمد، صاحب البحرين، وهما من ملوك سيف البحر، المجاور لبلاد فارس، في أيام الملك الإمام المستنصر بالله 640هـ/1242 م، وذلك في سنة ثمان وعشرين وستمائة (1230 م)، فحملها أصحابها معهم وأظهروا للناس أكلها، فاشتهرت بالعراق، ووصل خبرها إلى أهل الشام ومصر والروم، فاستعملوها... وقد نَسَبَ إظهارَ الحشيشة الى الشيخ حيدر الأديبُ محمدُ بنُ عليٍّ بن[21] الأعمى الدمشقي في أبيات[22] وهي:

دَعِ الخَمْرَ واشربْ من مُدامة حيدرِ ... مُعَنْبَرَةً خضراءَ مثلَ الزبرجد
وفيها معانٍ ليس في الخمر مثلُها ... فلا تستمع فيها مقالَ مفنّد
هي البكرُ لم تُنْكَحْ بماء سحابة ... ولا عُصِرَتْ يوماً برجل ولا يد
ولا نَصَّ في تحريمها عند مالكٍ ... ولا حدَّ عند الشافعيِّ وأحمد
وَكُفَّ أكُفَّ الهم بالكَفِّ واسترح ... ولا تطّرح يومَ السرورِ إلى غد

... وقد حدثني الشيخ محمد الشيرازي القلندري أن الشيخ حيدراً لم يأكل الحشيشة في عمره، وإنما عامة أهل خراسان نسبوها إليه لاشتهار أصحابه بها، وأن إظهارَها كان قبل وجوده بزمان طويل وذلك أنه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن، هو أول مَنْ أظهر لأهل الهند أكلها، ولم يكونوا يعرفونها، قبل ذلك. ثم شاع أمرها في بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن؛ ثم فشا إلى أهل فارس؛ ثم ورد خبرها إلى أهل العراق والروم والشام ومصر، في السنة التي قدمت ذكرها. قال وكان بيررطن[23] في زمن الأكاسرة، وأدرك الإسلام وأسلم، وإن الناس من ذلك الوقت يستعملونها. وقد نسب إظهارها إلى أهل الهند علي بن مكي[24] في أبيات أَنْشَدْنِيها من لفظه وهي:

ألا فاكفُفِ الأحزانَ عني مع الضرّ ... بعذراءَ زُفَّت في ملاحفها الخضْر

تجلّتْ لنا لما تحلتْ بسندس ... فَجَلّتْ عن التشبيهِ في النظم والنثرَ
بَدَتْ تملأ الأبصارَ نوراً بحسنها ... فأخجل نور الروض والزهر بالزهر
عروسٌ يسر النفسَ مكنونُ سرها ... وتصبح في كل الحواس إذا تسري
فللذوق منها مطعم الشهد رائقاً ... وللشم منها فائق المسك بالنشر
وفي لونها للطرْف أحسنُ نزهة ... يميل إلى رؤياه من سائر الزهر
تركب من قان وأبيض فانثنت ... تتيه على الأزهار عاليةَ القدْر
فيكسف نورَ الشمس حمرةُ لونها ... وتخجل من مبيضّه طلعةُ البدر
علت رتبة في حسنها وكأنها ... زبرجدُ روضٍ جَادَهُ وابلُ القَطْر
تبدّتْ فأبدت ما أجَنَّ من الهوى ... وجاءت فولّتْ جند همّي والفكر
فقم فانفِ جيشَ الهم واكفف يَدَ العَنَا ... بهنديةٍ أمضى من البيضِ والسمر
بهندية في أصل إظهار أكلها ... إلى الناس، لا هندية اللون كالسمر
تزيل لهيب الهم عنا بأكلها ... وتهدي لنا الأفراحَ في السر والجهر

قال: وأنا أقول: إنه قديم معروف منذ أوجد الله تعالى الدنيا. وقد كان على عهد اليونانيين. والدليل على ذلك ما نقله الأطباء في كتبهم، عن بقراط وجالينوس، من مزاج هذا العَقّار وخواصه ومنافعه ومضاره...

أنشدني تقي الدين[25] الموصلي.

كُفَّ كَفَّ الهموم بالكَفِّ فالكَفُّ ... شفاءٌ للعاشق المهموم
بابنة القنب الكريمة لا باب ... نةِ كَرْمٍ بُعْداً لبنتِ الكروم

قال والفقراء إنما يقصدون استعماله مع ما يجدون من اللذة كي لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع في الزنا...»[26].

ومن الشعراء الذين افتنّوا في تفضيل حشيش الفقراء على الخمر (وبالعكس) النور الإسْعِرْدي[27] (656 هـ/1258 م). من ذلك قوله من قصيدة طويلة[28]:

لك الخيرُ لا تسمعْ كلامَ المفنّد ... ودونك في فتياك غيرَ مقلد
سألتَ عن الخضراء والخمر فاستمع ... مقالةَ ذي رأي مصيب مسدد
عليك بها خضراءَ غيرَ مبالغ ... بأبيضِ ورْقٍ أو بأحمر عسجدِ
ولكنْ على رغم المدام هديةً ... تنزه عن بيع بغير التزهد
مُدامُهُم تُنسي المعاني وهذه ... تذكّر أسرارَ الجمال الموحد
هي السر ترقى الروحُ فيها الى ذرى الـ ... معالم في معراج فهم مجرد
بل الروح حقاً لا يَحُلُّ بربعها ... همومٌ ولا يحظى بها غير مهتدي
ولا داسها العصّارُ عمداً ودنّس الـ ... دّنان بمختوم من القار أسود
ولا تستخفُّ الناسُ عقلَك بينهم ... لَعَمري ولا تُدْعَى لديهم بمفسد
وفي طَرَفِ المنديل يوماً وعاؤها ... ويعتاض عن حمل الزجاجة باليد
وتخلص من إثم وحدٍّ ولا ترى ... ذليلاً وتنجو من نديم معربد

وتشربها في العسر واليسر دائماً ... ولا تتقي فيها ليالي التعبد
وتأمن كبساتِ الحماة وكيدَهم ... وتسلم من جور الولاة ولا تدي[29]
وتغدو ذكياً فاضلاً ذا نباهة ... ظريفاً ولا يغشاك فرطُ تبلد
فلا تستمْع فيها مقالة عاذل ... يصدك عنها واعصي كلَّ مفند

وينبغي أن يلاحظ أن هذا كله كان قبل اجماع الفقهاء على تحريم الحشيش، لما تبين من مضاره. وجدير بالإيراد هنا أنهم حرموا قهوة[30] البن، بَدْءاً، فلما ثبت لهم أنها خلْوٌ من شائبة الإسكار أباحوها. فالمقريزي نفسه قد ساق، قبل النص الذي قبسناه وبعده، ما ينطق بتحريم الحشيشة وأذاها: «وتعرف... (بمجلة معينة في القاهرة) ببيع الحشيشة التي يبتلعها أراذل الناس. وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوّاً زائداً، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعاً كثيراً، وتظاهروا بها من غير احتشام، بعدما أدركناها تعد من أرذل الخبائث، وأقبح القاذورات. وما شيء في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها، ولاشتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم تعين ذكرها...»[31].

ثم نقل عن ابن النفيس (الطبيب الشهير، مكتشف الدورة الدموية الصغرى، المتوفَّ، في رواية سنة 687 هـ/1288 م) «أنه سئل عن هذه الحشيشة، فقال اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة والرذالة. وكذلك جربنا، في طول عمرنا، مَنْ عاناها فإنه ينحط في سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الانسانية شيء البتة»[32].

ولم يتفرد ابن النفيس بملاحظته هذه. فقد سبقه اليها وتابعه فيها أطباء وعشّابون (علماء النبات) كابن البيطار[33] (المتوفَّ سنة 646 هـ/1248 م). على أنه لم يفهم استخدامه في النطاق الطبي الصرف. ونورد، بادىء بدء، ما ذكره ابن البيطار مؤيداً رأيه بأقوال الأطباء المجربين[34].

وإذْ غدت لفظة «البنج» و «التبنيج» - في كتب طب القدامى - تعبيراً شاملاً لفكرة استخدام مواد تزيل آلام المشرط، فقد رأينا توضيح دلالتها، ها هنا، بادئين بالتنبيه الى أن النبات المذكور لا علاقة له، لغوياً، بثلاثي «بَنَج». فأساس معنى مادة («جذر») «بَنَجَ» في العربية: الأصلُ. فإذا قلت: بنج المرء «عنيت»: أنه «رجع الى أصله» واذا استعملت الفعل مزيدا، وقلت «أبنج» أو «انبنج» الرجل، فالمعنى: أنه «ادّعى الى أصل كريم»[35] أما «البنج» (وقد تقدم تعريفنا به)، فقد علم خاصتَه قدامى العشابين والأطباءِ الاسلاميين والعرب.

وأوسع في تبيان مفاعيله، علاجيا وصيدلانيا. ثابتُ بن قرة (288 هـ/901) في «الذخيرة» - وهو من أسبق الأطباء وأقدمهم - حتى بلغ به الأمر أن يضع شبه كلية طبية فقال: «كل دواء يدخله البنج والأفيون واليبروح[36] يغلب المرض ويطفىء الحرارة الغريزية»[37]. كما أوضح أثره في قطع النزف اذا صحبته حرارة[38]. وكشف عن انه مضاد للالتهاب[39]. (وأبان، لأول مرة، أنه يسرع في الاسكار والخمار[40]، الخ...) وقد أشار ابنُ القف (685 هـ/1286 م) الى فعله مخدراً ومنوماً، شما وضماداً على الجبين[41]، ومسكنا موضعياً لآلام الاسنان (195/2). ووفق توفيق الخبير الألمعي حينما ميز بوضوح (205-204/2) بين التسكين أو العلاج بالمواد المخدرة؛ إذْ نعته بالعلاج «غير الحقيقي»، يعني به العلاج التخفيفي، الموقوت؛ والتسكين، أو العلاج الحقيقي بغير المخدرات، وهو عنده العلاج «الطبيعي» أي الحقيقي، المتفق وطبيعةَ الجسمِ وأعضائه. ثم يقفّي ابن البيطار (المتوفَّ سنة 646 هـ/1248 م) فيذكر، في ما يذكر[42]، من فعل هذه المادة تسكين الآلام، وتخديرها والإسبات واسترخاء الأعضاء، بل انه لم يفته أن يلاحظ «أنه اذا دُخن ببزر البنج الضرس الوَجِع في أنبوب، سكنه»[43]، مثلما أتى على منافعه في علاج السعال والنزلة الصدرية، والمغص المعوي؛ وكذلك تسكينه الأوجاع اذا اتخذت منه ضمادات؛ مثلما ميّز بين الأسود منه والأبيض[44]. ولعل كتب العقاقير الحديثة لو أرادت إيجاز مزاياه، لما زادت على القول: «هو منوم ومخدر،

ومضاد للتشنج والتقبض والتقلص... ويستعمل مع الزيوت تدليكاً ودهاناً مسكناً[45]...» وهذه خلاصة ما ذكره ابن البيطار (يضاف الى هذا إشارته الصريحة الى فعل دخان بزره) وسواه من قدامى علمائنا. ابتغينا بإضافتنا القول في التعريف بلفظة «البنج» التي تعني اليوم لعامة الناس، مطلق مخدر منوم يتعاطى قبل اجراء الجراحة (Anaesthetic-Anesthesique) الا يقع لبس حينما يأتي ذكر «البنج» في تصانيف السلف. فالبنج الذي توصلوا الى اكتناه خصائصه المخدرة والمنومة، يمكن أن يقصد به في التآليف الاسلامية والعربية ـ التي ترقى الى ما قبل القرن الثالث أو الرابع الهجريين/التاسع أو العاشر الميلادي، كما يتضح من سياق البحث ـ عَقّار معين يذهب بالأوجاع. أو مخدر ـ من جملة مواد ـ لاستدعاء حال من اللاوعي، وفقدان الحس. والأفيون[46] أشد المخدرات[47] قوةً عند ابن سينا (428 هـ/1037 م)وقد وصف خصائصه فقال: «ينوم سمه... مخدر مسكن لكل وجع سواء أكان شرباً أو طلاءً منوم ولو احتمالاً بفتيلة، أو بغير فتيلة... وهو مما يبطل الفهم والذهن...» ونجد حديثاً، أنه «يستعمل مخدراً ومسكناً للآلام، وتعاطيه يسبب، في البدء نشوة وخيالاً، ثم يتحطم المدمن بسرعة وينهار...»[48] وسلك البنجَ في عداد المخدرات، التي تلي الأفيون قوةً فاعلية. ثم تكلم على خصائصه، في مكان آخر، فقال: انه «مخدر يقطع النزف، ويسكن بتخديره الأوجاع الضربانية... وهو مما يسبت، وإن أكل من ورقه شيء له قدر، خلط العقل...». وقد تقدمت الاشارة الى خصائصه بمعيار علم العقاقير اليوم. والأفيون الذي استخدمه اطباء العرب (كان الرازي (313 هـ/925 م) مثلاً أول من استخدم مركباته في علاج السعال[49]) ونقل عنهم إلى أوروبة، كان أبرز العقاقير في القرن التاسع عشر، ولولاه «لتوقف فن العلاج والمداواة»[50] مثلما كان ـ ولا يزال ـ السم الزعاف الذي ابتلي به مَنْ ابتلي ممن أدمنوه، ومنه نابغون في نطاق الأدب والفن والعلم تكمن آفة «الأفيون» الكبرى (وأقلائه «alkaloids» كالمورفين «morphine» والكودين «Codeine»، والبابافرين «Papaverine» الخ...) وأمثاله من المخدرات كالكوكايين «Cocaine»، في إدمانها. ومما يبعث على الدهش والعجب معاً أن تعاطي هذه المواد ـ حتى ولو كان في نطاق طبي صرف (بمقدار معين، والى أمد معلوم، وباشراف الطبيب) قد لا يجعل المرء في نجوة ومأمن من خطر إدمانها! ثم إن اعتياد تعاطيها، أمداً معيناً، مُفْضٍ ـ لا مَحَالَة ـ الى زيادة الجرعة منها تدريجياً زيادة كبيرة قد تورده، من بعد، مورد التهلكة، اذ يستولي على جسده وذهنه وهن مستبد، فيضطرب الجهاز العصبي والتنفسي والدورة الدموية. دع عنك ما يحيق بذاكرته من اضطراب وما ينزل بإرادته من تلاشٍ.

ويُعْلَمُ من أفاعيل المدمنين في سبيل احتياز جرعة من هذه المواد ما يقرب من حد الخيال. ومن الطريف أن الأدب الغربي، في القرن التاسع عشر، عمد الى التحليل النفسي، فاتخذ من «المورفين» مادته فضلاً عما صُنِّف في الأفيون من تصانيف: تاريخاً، ومنشئاً، وتداولاً وعواقبَ نفسيةً، وعقلية، وجسدية.

ولعل من المناسب أن نورد ـ في هذا المقام ـ أن الصين عهدت الأفيون ـ في أواخر القرن السابع للميلاد أو أوائل القرن الثامن عَقّاراً مسكناً. وظل تعاطيه محدوداً حتى القرن السابع عشر، إذ تفشت عادة تدخينه مخدّراً. وتفاقم الأمر بسرعة عجيبة، وذاع إدمانه بين الصينيين. ففي سنة 1729، كان قد بلغ من الخطورة مبلغاً حمل الأمبراطور على حظر تدخينه رسمياً. ولم يُجْدِ هذا. فعقب على ذلك الحظر امبراطور آخر، سنة 1796، بمنع استيراده وزراعته، ومع ذلك ظلت تجارته رائجة. وشرع البريطانيون في الاتّجار به منذ سنة 1773، وما لبثوا أن غدوا سادة تجارته (بلغت نسبة التجارة به عندهم خمسين بالمائة، سنة 1833) وشالت كفة الميزان التجاري الصيني، وإن سبقهم الى الإتجار به البرتغاليون، في مطلع القرن الثامن عشر. وجدير بالتدبر أن في التاريخ حربين[51] عرفتا بحرب الأفيون، الأولى (1839-1842) بين بريطانية والصين، وحرب الأفيون الثانية (1856-1860) بين بريطانية وفرنسة متحالفتين ضد الصين. وكان الحافز على القتال، في كليهما، تجارياً صرفاً. فقد كان البريطانيون، كما أسلفنا، يتجرون بالأفيون في الصين (شركة الهند الشرقية). وغني عن البيان أن ذلك كان محرماً قانوناً. فلجأت الشركة هذه الى زراعته في الهند (مقاطعة البنغال) وتهريبه الى الصين بوسائلها الخاصة. واذ استشرى تعاطي الأفيون

بين الصينيين، تبدت آثاره المدمرة بشرياً واقتصادياً، فقد حزمت الدولة أمرها، وأتلفت سنة 1839 كل ما في مستودعات الأفيون في كانتون «Canton» (حوالي مليون كيلوغرام). وأثارت هذه الخسارةُ الانكليزَ فوق ما كان في الحسبان. وما لبثت الأمور أن ساءت أكثر فأكثر، لما قتل بحارةٌ انكليزٌ سكارى أحدَ الصينيين، إثر شجَار؛ فقد أبى الانكليز تسليم الحكومة الصينية المتهمين بالقتل.

وأعلنت بريطانية الحرب على الصين في نيسان 1840 بحجة وقوف الصين في وجه التجارة الحرة، وسوء معاملة الرعايا البريطانيين. وكان النصر، سريعاً، حليف الإنكليز. وفي 1842/4/29 عقدت معاهدة نانكنغ Nanking، ثم الحقت بمعاهدة بوغ Bogue في 1843/10/8 ومما انجابت عنه هاتان المعاهدتان إلزام الصين بالتعويض بواحد وعشرين مليون دولار عن الأفيون الذي أُتلف مُن قبل (سنة 1838)، والتنازل عن ميناء هونغ كونغ ليكون للإنكليز مستعمرة. وقد طالبت، غِبَّ ذلك، دول غربية أخرى بامتيازات مشابهة فاستجابت الصين لها. أما حرب الأفيون الثانية (1856-1860) أو «حرب السهم» [وهو اسم سفينة مرفوع عليها العلم البريطاني، احتجزتها السلطة الصينية]. فقد عضدت فيها فرنسةُ الإنكليزَ بدعوى الفرنسيين مقتلَ أحدِ المبشرين الفرنسيين، في إحدى مناطق الصين الداخلية. وسرعان ما انجابت المعارك التي نشبت، في آخر سنة 1851، عن هزيمة الصين مرة أخرى، وعقدت معاهدة جديدة تيانتسان (Tientsin) في السنة نفسها، حققت مكاسب جديدة للتجارة الغربية في الصين ومزيداً من الحرية للمبشرين فيها. ثم عقّب على هذه المعاهدة بمفاوضات (في «شنغهاي» في السنة ذاتها) كان لها ـ إطلاق تجارة الأفيون (إسباغ الشرعية عليها). وإن كان هذا أفضى الى اضطرابات داخلية قام بها الصينيون احتجاجاً على الاتفاق (أحرق قصر الامبراطور في سنة 1860). ولكن الصينين وقّعوا في سنة 1860 عينها، اتفاق بكينغ Peking الذي اعترف وأقر معاهدة تيانتسان Tientsin.

وربما كان جديراً بالتنويه والتدبر معاً كشف علمي حديث[52]، فحواه: «إن المخ يصنع العديد من الأفيونات التي تتشابه في مفعولها مع أفيون النبات» وإذ كان للأفيونات فعلٌ مخصوص على مخ الإنسان، فقد كان شغل العلماء الشاغل أن يكشفوا عن الطريقة التي يتم بها تأثير هذه الأفيونات. وتبين لهم ميكروسكوبياً ـ في ما تبين ـ أن ثمة متقبلات (Receptors) أفيونية في خلايا المخ، ذات علاقة بالأفيون وفعله في إزالة الألم، مثلما تمكنوا من فصلها كيميائياً واكتناه تركيبها واتحاد الأفيونات بها. وكشف هذه «المتقبلات» كان رائد العلماء في إماطة اللثام في السنوات الأربع الأخيرة عن حقائق أفيونات المخ والجهاز العصبي[53].

وكان هم الباحثين أن يقفوا على أسباب تكوين هذه «المتقبلات» في المخ، وأن يعلموا إذا كان في المخ مواد أفيونية تتحد بها، كما هي الحال مع المواد الكيمائية الناقلة mediators في المخ: مثل الأدرينالين[54] والأستيل[55] كولين، المتسمتين بخواص تَقَبُّلِيَّة؛ واذا كان لهذه المواد الأفيونية خاصية ناقلة في الجهاز العصبي، شأن السيروتونين[56]، وحمض غاما أمينوبيوتريك[57]، وحمض غلوتاميك[58]، وغيرها[59].

وقد دأب العلماء على الأبحاث الفارماكولوجية، المخبرية حتى أفلح العالم «هيوز» وزملاؤه (سنة 1976) بالاتيان بالبينة على وجود أفيونات في المخ انكيفالان[60] Enkephalin، اندورفين Endrophine. ومن مطامح العلماء أن يفلحوا في اكتشاف عقاقير تَقِفُ نُمُو الخمائر أو تحول دون تكوّنها. وهذه الخمائر هي التي تكسّر الأفيونات المخيّة، فتزيد مقدارها ومفعولها، فيكون للجسم أفيونه الطبيعي «الداخلي»، الخالص من شائبة الإدمان وغائلته[61].

الحواشي

(1) انظر: فياض (نقولا): «كيف تغلب الانسان على الألم»: 120

(2) الأفيون: (Opium)؛ اسمه العلمي: papaver Somniferum Album وهو عصارة ثمر الخشخاش، الذي لم ينضج بعد، بتشقيقه؛ مرّ المذاق، ذو رائحة متميزة. فيه عدة أقلاء (جمع قَلْي: [Alkaloids]) منها: «المورفين» الذي استخرجه منه Serturner، سنة 1803: ($C_{17}H_{19}NO_3H_2O$).

(3) انظر: فياض: 120.

(4) المقصود بالدراويش هنا: المنتسبون إلى إحدى الطرق الصوفية: ويرادف الدراويش (بالاصطلاح الصوفي): الفقراءُ أو الإخوان. [انظر ماكدونالد (D.B. Macdondald): «درويش» «دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية ـ: 9/219-223، وعند: [Hughes (Thomas Patrick): «The Dictionary of islam»: 70] و Brown (John P.): «The Darvishes», Frank Cass of Co. L.T.D, 1968, p. 49].

(5) البنج: (بفتح الباء): لفظة دخيلة من الفارسية، تطلق على ضرب من النبات، يستخدم في النطاق الطبي مخدراً، من فصيلة الباذنجانيات (Solanaces) وهو جنسان أبيض: Hyoscyamus albus [White herbane/Jusquiame blanche] وأسود: Henbabne, Hyoscyamus niger, [Hen-bell, Hyoscyamus, Common Herbane] وإذا أطلقت اللفظة، فقد قصدت الأبيض، ويسمونه: الشيكران Jusguiane noire ويعرف كذلك باسماء أخرى: سكران، سيكران. وربما خص الأسود منه (البنج الأسود) بلفظ: سكران. ويخطىء الغافقي (القرن السادس هـ/الثاني عشر م) من يزعم أنه السيكران، كما ذكر «مايرهون» في دائرة المعارف الاسلامية..، مادة «بنج».

(6) حاجي خليفة: 851/1.

(7) ابن البيطار: 71/3 وسنأتي على ذكر القنب، من بعد، وهو الحشيشة ـ كما أورد ابن البيطار: 39/4.

(8) راجع كتاب كشف النقاب عن أنواع الشرب «لرشيد الصيرفي: 91-102 وانظر كلمة «الشهدانج» في كتب العشابين، كابن البيطار وداود الأنطاكي. وقد وقعتُ على تصنيف، بالإنكليزية، عن نبتة الحشيش في المجتمع الاسلامي خلال القرون الوسطى:
Rosnathal (Franz): «the Herb-Hashish Versus Medieval: Muslim Society», Leiden, Brill 1971.
وهذا الكتاب دراسة علمية رصينة؛ أحسبها جديدة في بابها: أسماء، وتاريخاً، وتأثيراً جسدياً وذهنياً، وادماناً، وتبياناً لحكم الشريعة في استعماله. وكذلك طواه على بعض القصائد التي نظمت في تزيين تعاطيه قبل أن تثبت حرمته باتفاق عند الفقهاء. وقد ذيل هذا كله برسالة قصيرة لمحمد بن عبدالله الزركشي (794 هـ/1392 م) عنوانها: «زهر العريش في أحكام تحريم الحشيش» وهي رسالة أخرى غير التي وُسِمَتْ بعنوان مُشَابه: «زهر العريش في تحريم الحشيش» لمحمد بن سليمان الشاطبي (672 هـ/1274 م). وقد كاد Rosenthal يحصي في توطئة كتابه القيم، الشامل هذا (P. 5-18) أسماء التواليف العربية القديمة التي عرضت لموضوع الحشيش هذا (أكثر من عشرين، أكثرها لا يزال مخطوطاً)، وعيّن مواضعها من مكتبات العالم.

(9) Hashish, Hasheesh: هو راتينج (المادة الصمغية وراء لحاء الشجر) زهر نبته القنب (Cannabinone) بعد تخفيفه وسحقه دقيقاً. ويحتوي مسحوقه هذا على عدة مواد اكتُشِف منها، حتى الآن: (Tetrahydroconnobinol ($C_{21}H_{30}O_2$). ومن آثارها الانشراح (Euphoria) والقلق المفرط (anxiety)، وانخفاض حرارة الجسم، وازدياد الميل للانتحار، وفقدان المقدرة على تحديد البعد المكاني (Nation of Space)، والهذيان والاهتياج (في حال تعاطي جرعات كبيرة). أما إدمانها، أمداً طويلاً، فيورث الوهن والضعب العامين، والأرق (جفوة النوم وعصيانه)، الخ...

(10) المقصود بالفقراء هنا، الاصطلاح الصوفي، الذي أشرنا إليه في تعريفنا لفظة الدراويش.

(11) لن نعلق على الصنعة البادية في النص. فإن ما يهمنا ـ في هذا المقام ـ نسبة هذه النبتة إلى الزهاد وتعاطي نفر منهم إياها قبل أن تحرم (انظر تعليقاً محققاً على رواية المقريزي هذه، وأسماء الأعلام والمواضع الواردة فيها، ومعارضتها بروايات أخرى، واقتفاءُ لتاريخ الحشيشة هذه لدى Rosenthal: p 41-56.

(12) جاء في «كشف الظنون» لحاجي خليفة (1009/2): «السوانح الأدبية في المدائح القنبية للحسن بن محمد بن عبد الرحمن أبي البقاء العُكْبَري: رسالة كأنه عارض بها صاحبها «تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة» للقطب القسطلاني (686 هـ/1287 م). ولما وقف القسطلاني على هذه، وضع رسالة أخرى سماها: «تتميم التكريم لما في الحشيش من التحريم، يذكر فيها ما ذكره ويرده». انظر أيضاً: «إيضاح المكنون»: 226/1)، ومن هنا نلاحظ اختلاف الرأي في حرمتها (أول الأمر).

(13) لم أستطع ـ على كثرة التتبع ـ تعيينه. ومن هنا ملت إلى أنه أحد أتباع هذه الطريقة غير البارزين.

(14) «تُسْتَر»: أعظم مدن خوزستان (الأهواز) (ياقوت: 29/2, 284/1).

(15) المقصود بالفقراء، هنا، ما أسلفنا ذكره: الدراويش، والزهّاد، الخ...

(16) قصارى ما استطعت علمه من شأن «حيدر» هذا أنه: مؤسس جماعة (طريقة) الحيدرية (انظر Rosenthal: p 45)، وأنه كان حياً سنة 550 هـ/1155 م (انظر ص: 176 من رسالة الزركشي التي أثبتها Rosenthal في آخر كتابه pp. 167-197). وقد أورد ناشر ديوان ابن خميس (ص: 109) أنه: حيدرة بن يحيى؛ من علماء بغداد في القرن السادس للهجرة. توفي سنة 550 هـ/1155 م، ولم يعين مصدره، وأثبت Brown في كتابه «The Darvishes» (p. 458)، رقم 36، أن أبا الطريقة الحيدرية هو قطب الدين حيدر (من خراسان)، وأنه كان حياً في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة)؛ ولم يأت بأي تفصيل عن نشأته وحياته.

(17) نشاور ـ عند ياقوت. وهي التسمية العامة لنيسابور (ياقوت: 331/5). وتقع نيسابور في خراسان (ياقوت: 35/2).

(18) ملوماه: لم أعثر على هذه التسمية. ويميل Rosenthal (حاشية صفحة 51) إلى الأخذ بما ورد في مصدر آخر: زاوه. وهي «من رساتيق نيسابور وكورة من كُوَرها» (ياقوت: 128/3).

(19) في رسالة الزركشي المثبتة في آخر كتاب Rosenthal (ص 176-177): أن هذه الحشيشة سميت بالحيدرية نسبة إلى حيدر هذا، والقلندرية. وتترجح نسبة القلندرية ـ في المراجع التي وقفت عليها ـ بين قلندر يوسف الأندلسي وجمال الدين الساوجي. والذي يبدو واضحاً من جُمّاع الروايات هنا وهناك: أن قلندر يوسف أنشأ هذه الطريقة في الأندلس، بينما أسسها الساوجي في «ساوه» (فارس) ثم نقلها إلى دمشق ودمياط في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ـ السابع للهجرة.

انظر: Brown حاشية ص 170، ص 299، و Rosenthal ص: 50 وKalandariya (تحت مادة: Tarika) بقلم ماسينيون Massignion في «The Encyclopoedia of Islam» (1934) (670/4)، ومادة Kalandari بقلم بابنغ Franz Babing في المصدر نفسه (677/2).

وكذلك قال الزركشي إنها تدعى الغبيراء. ولعله يقصد بذلك (تصغير غبراء: مؤنث «أغبر») لونها الذي يشبه لون الغبار والأرض.

(20) حكم «هرمز» ـ عهد ذاك ـ مَنْ دعي بسيف الدولة أبي نادر، كما تحقق من ذلك روزنتال Rosenthal (انظر حاشية: ص 52). ولم يتسنّ لي الوقوف على معلومات عن هذين العلمين المذكورين في النص.

(21) لم أعثر على ترجمة لمحمد بن علي هذا؛ وإنما وقفت على سيرة «علي بن محمد بن المبارك كمال الدين بن الأعمى» المتوفّى سنة 692 هـ/1293 [انظر «فوات الوفيات»: 87/3-92، و«الأعلام» للزركلي: 155/5.

(22) عُزِيَتْ هذه القصيدة أيضاً ـ بتحريف يسير في بعض الألفاظ، ومغايرة في بعض الأبيات: ترتيباً، وزيادةً، وحذفاً، إلخ... ـ إلى أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمساني المتوفّى سنة 708 هـ/1309 م. وتجدها في ديوانه: «المنتخب النفيس في شعر أبي عبدالله بن خميس» لعبد الوهاب بن منصور، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1365 هـ، ص: 109.

(23) الاسم غامض، ولعله محرف. (انظر Rosenthal: p 44).

(24) يستنتج Rosenthal من نص في، إحدى المخطوطات التي استعان بها في بحثه، أنه كان عازفاً موهوباً على المزهر والرق، في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي في بغداد. (P. 152).

(25) لم أجد ترجمة له.

(26) «الخطط»: 126/2-128.

(27) هو محمد بن محمد، نور الدين: شاعر غلب عليه المجون والهزل. بَيْدَ أنه اختص بالملك الناصر الأيوبي (626 هـ/1228 م ـ 656 هـ/1258 م)، ومدحه بمدائح عرفت بالناصريات. توفي سنة 656 هـ/1258 م (انظر: «فوات الوفيات»: 271/3-276، و «الوافي بالوفيات»: 188/1-192.

(28) فوات الوفيات: 273/3-274 (وتقع على غير قصيدة، من هذا القبيل، لصفي الدين الحلي المتوفّى سنة 750 هـ؟/1349 م. انظر ديوانه، ط. دار صادر ـ دار بيروت، 1962، ص 628-631).

(29) ودي، يدي، ديَةٌ: أدّى الدية (حق القتيل) (مادة «ودي» في لسان العرب).

(30) نتبين من عنوان مؤلّف لأبي محمد عبدالرحمن بن عبد الكريم بن زياد: «الجواب المحرر لأحكام المنشط والمخدّر» أن الجدل كان محتدماً في سنة 949 هـ/1542 م حول القهوة والقات (حاجي خليفة: 608/1 و «إيضاح المكنون».

(31) «الخطط»: 126/2.

(32) المصدر نفسه: 128/2.

(33) انظر قنب في «مفردات ابن البيطار»: 39/4.

(34) «... ومن القنب نوع ثالث يقال له: القنب الهندي... ويسمى بالحشيشة... وهو يسكر جداً إذا تناول منه إنسان يسيراً: قدر درهم أو درهمين، حتى إنّ مَنْ أكثر منه يخرجه الى حد الرعونة. وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم، وأدى بهم الى الجنون وربما قتل. ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى... فإنهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً، وربما يسكرهم ويخرجون به الى الجنون أو قريباً منه كما قدمنا وهذا ما شاهدته في فعلها...» وقال عن الأفيون «إذ أخذ منه شيء يسير سكن الوجه وأرقد... رائحته تسبت.. وإذا أخذ منه شيء كثير أنام نوماً

شديد الاستغراق جداً. . واذا احتُمِل في المقعدة فتيلة أرقد. . . رائحته تسبت. . . ومَنْ سُقِيه عرض له الكزاز والسبات. وربما عرضت له حكة شديدة في بدنه. . . وربما غارت عينه، وانعقد لسانه وتكمدت أطرافه وأظفاره وينصبّ منه العرق البارد، ويتشنّج. . . » (45/1).

(35) انظر هذه المادة في «لسان العرب» و «المرجع». وفي «المصباح المنير»: أنه «نبت له حب يخلط بالعقل. ويورث الخيال، وربما أسكر. اذا شربه الإنسان بعد ذوبه. ويقال إنه يورث السبات وفي «القاموس المحيط»: «نبت مسبت» واحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية لرمزي مفتاح: 180/1.

(36) (Mandrake, Mandragore, Mandrake) Mandragora officinarum, Mandragora.

(37) «الذخيرة»: 80.

(38) المصدر نفسه: 118.

(39) المصدر نفسه: 147.

(40) المصدر نفسه: 180.

(41) «العمدة»: 219/1.

(42) «المفردات» 118/1.

(43) المصدر السابق 118/1.

(44) المصدر السابق: 118/1.

(45) مفتاح: «احياء التذكرة»: 180.

(46) الأفيون: تقدم التعريف به. ولعل من الخير أن نزيد ما أورده ابن سينا عن: «. . . ينوم شمه. . . مخدر مسكن لكل وجع سواء كان شرباً أو طلاء منوم ولو احتمالاً بفتيلة: Suppository/Suppositoire أو بغير فتيلة. . . وهو مما يبطل الفهم والذهن. .» («القانون»: 256/1-257).

(47) «القانون»: 220/1.

(48) الضَّرَبان: تحرك الألم في المكان الموجع. أو، كما عبّر الرازي، «حس مؤلم يحدث من حركة العروق الضوارب (الشرايين).

(49) مجلة: World Health organization May 1970 p. 14. (انظر «الحاوي»: 403/20) وأشار به ابن سينا في تسكين «السعال الملحف» في القانون 257/1.

(50) عمار (السيد): «اكتشاف أفيونات المخ ـ ثورة جديدة في علاج آلام الإنسان»، مجلة «العربي» (الكويت)، العدد 254، فبراير (شباط) 1981، ص 15.

(51) ألفت تآليف كثيرة في هذا الموضوع. ويتسم بالإيجاز المفيد ما ورد في:
عن: Opium wars و Opium trade . «the New Encyclopaedia Britannica «(Micropeadia), 15 th Edition (7/552)

(52) عمار: 16.

(53) Adrenaline ($C_9 H_{13} NO_3$) Adrenalin ويدعى أيضاً Epinephrine مادة هورمونية، خلاصة الغدة الكُظْرية (فوق الكلوة) ابرز خواصها رفع ضغط الدم ووقف النزف.

(55) Acetylcholine chloride، ($C_7 H_{17} O_3N$): قَـلْي (alkaloid) يخفض ضغط الدم، وينشط حركة الأمعاء «المرج ـ بفتح الميم والراء» (Peristalsis). كان يستخرج، قبلاً، من فطر محدد (Ergot)، يصيب نوعاً من الحنطة (Rye-Sègle, seigle)؛ الجاودار أو الجويدار، شالم).

(56) Serotonin ($C_{10} H_{12} N_2O$): مادة كيميائية في دماغ الإنسان ونسيج أمعائه، وصفائح الدم، وخلايا النسيج الضام. وأُشْيِعُ خواصّها أنها تقبض الأوعية الدموية. ولكن يجب التنويه بأنها مُسْتَعْصِب: ناقل للمؤثرات العصبية (Neurotransmitter). وأورد بعض الباحثين: أنها ذات فعل كبير في عملية الاحتراق (Metabolism) في الدماغ. وإذا زاد مقدارها في الدماغ، زيادة معينة، تأثر نشاطه. كما أن نقصها ـ في رأيهم ـ يفضي إلى همود وكآبة (Depression):

[Harper, H. «Review of Physiological Chemistry», 13th ed., 1971, p. 342]

وفي ظن باحثين آخرين: أنها من أسباب الشقيقة: «ألم يأخذ في نصف الرأس والوجه» (Migraine)

[Martindale: «The Extra pharmacopoeia», 26th. ed., p. 2039]

(57) Gamma Ominobutyric acid (GABA) ($C_4 H_9 NO_2$) neurotransmitter: أيضاً، منظم طبيعي للخلية العصبية (neuronal activity).

(58) glutamic acid Hydrochloride ($C_4 H_9 NO_4 HCL$): مادة تصنعها خلايا الدماغ. وهي neurotransmitter لعمل هذه الخلايا.

(59) عمار: 17.

(60) مادة كيميائية في الجسم البشري، لها فعل «المورفين»، ولكنها خلو من أضراره لضآلة كميتها. وقد تفضل، مشكوراً، الأستاذ الكبير الدكتور شارل أبو شعر بموافاتي بالمعلومات التالية عنها، وحسبان رمزي المادتين الكيمياويتين اللتين تتألف منهما: met-enkephalin و leu-enkephalin بنسبة 3-4 أجزاء من الأولى إلى جزء واحد من الثانية.

[J. Hughes et al: Nature, 258, 577 (1975)]. وكل مادة منهاتتألف من خمسة حوامض أمينية (Amino acids منها methionine (met) ، في الأولى، وleu (leucine) في الثانية. أما الحوامض الأربعة الأخرى فهي نفسها في المادتين، وهذه هي:

1 ـ Tyrosine.

2 ـ glycine.

3 ـ Phenyl alamine.

وعلى هذا فحسبان الرمز الكيميائي يكون كالآتي:

met Enkephalin C_{27} H_{35} N_5 O_7 S

leu enkephalin C_{28} H_{37} N_5 O_7

(61) عمار: 17.

المصادر والمراجع

العربية

1 ـ ابن البيطار (عبدالله): «كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، ج 1-4، مطبعة بولاق، 1291 هـ [أوفست مكتبة المثنى، بغداد].

2 ـ ابن سينا (علي): «القانون في الطب» ج 1-3، دار الطباعة المصرية 1294 هـ.

3 ـ ابن شاكر الكتبي: «فوات الوَفَيات»، ج 3 (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، 1974.

4 ـ عانوتي (أسامة): «تاريخ التخدير الطبي عند المسلمين والعرب، مجلة الباحث (الصادرة في باريس ثم في بيروت)، السنة الأولى، العدد الخامس والسادس، آذار ـ حزيران، 1979.

5 ـ عانوتي (أسامة): «روائع من التراث العربي»، الطبعة الأولى، «الأهلية للنشر والتوزيع»، بيروت، 1978.

6 ـ عمار (السيد): «اكتشافات أفيونات المخ ـ ثورة جديدة في علاج آلام الإنسان»، مجلة العربي (الكويت)، العدد 254، فبراير (شباط)، 1981.

7 ـ فياض (نقولا): «كيف تغلب الانسان على الألم؟»، دار العلم للملايين، بيروت، 1947.

8 ـ المقريزي (أحمد): «كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار»، ج 2، دار الطباعة المصرية، بولاق ـ القاهرة، 1270 هـ.

9 ـ مفتاح (رمزي): «إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية»، الطبعة الأولى، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1953.

10 ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان»، ج 1 ـ ج 4، دار صادر، بيروت، 1977.

الأجنبية

1 - Brown (John P.): «*The Darvishes*», Frank - Cass Co. LTD., 1968.

2 - «The New Encyclopaedia Britannica» (Micropaedia), 15th. Edition.

3 - Godman (Louis) & Gilman (Alfred): (*The Pharmacological Basis of Therapeutics*», Third Edition (1965), Sixth Edition (1980), Mac Millan Publishing Co. Inc., New York.

4 - Hughes (Thomas Patrick): «*The Dictionary of Islam*», New York, Scribners, Welford, Co. London, W.H. Allen & Co. 1885.

5 - Rosenthal (Frnaz): «*The Herb-Hashish Versus Medieval Society*», Leiden Brill, 1971.